

كلمة الدكتور الجعفري في البرلمان العراقي بمناسبة اليوم العالمي للمرأة
2012/3/8

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)).

لأن مؤتمركم مؤتمر امرأة، ولأن طبيعة الوسط طبيعة برلمانية مختصة بالتشريع ،
فلا بد أن أنسج كلمتي من خيوط طبيعتكم، وطبيعة الظروف التي أحاطت بالمرأة
والعذابات التي تعرّضت لها عبر التاريخ، ومن خلال تجارب الأمم كافة من دون
استثناء.

كل أمم العالم بشكل أو بآخر ساهمت في مأساة المرأة ، حتى إنها الآن تتوارث
ركامات ضخمة من خلال سيل العادات والتقاليد السيئة التي تدوّرت عبر التاريخ؛
فأمة من الأمم تستكثر عليها حياتها لا لشيء إلا لأنها أنثى تلك هي أمة العرب قبل
الإسلام:
(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)).

وأمة أخرى تنتقص من قيمتها، وتجعل حياتها مرهونة بحياة زوجها ، فإذا مات
زوجها لا تستحق من بعده الحياة، ولأن عادة الهندوس كانت حتى بداية القرن
العشرين حرق الميت فتُحرق زوجته وهي حيّة، وكانت أمة الصين في غابر عهدها
هي الأخرى تتغنى بالحواليات الصينية القديمة، بأن المرأة لا بد أن يُسكنها زوجها في
أقصى البيت؛ حتى تتوارى عن الوجود، وأمة الفرس والحضارة المجوسية كانت
هي الأخرى تستبعد المرأة في بعض أيام الشهر؛ لأسباب تكوينية وخلقية، وأمة
اليهود بعد أن تحرّفت، وشدّت عن كتاب الله التوراة هي الأخرى أبعدت المرأة،
وحرّمت عليها أن تحضر في المعابد، وأمة النصارى بعد أن تحرّفت هي الأخرى
جعلت المرأة مخلوقة لا لشيء إلا لخدمة الرجل، وهكذا إذا عبرنا من خلال جملة
الموروثات السابقة، نجد أن المرأة تضافرت ضدها جهود مكثفة؛ فأودت بها ألى ما
أودت إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

هذه ثقافات فعل سيّء، وحتى الآن في أغلب مجتمعاتنا، ولا أستثني منكم أحداً تعيش
المرأة وأنياب الظلم تنهش في كرامتها في كل بيت من البيوت، وفي أغلب العلاقات
الزوجية، ومع أكثر الأولاد كأمّ، ومع أكثر مسؤولي الدوائر كموظفة.. حتى اليوم
لاتزال الذكورية، وعقدة الذكورية تعصف في عقول البعض من المتخلفين.. حتى
اليوم لاتزال المرأة كأنها عورة إذا ذُكر اسمها في محفل ما وكأن لم يكن القرآن

الكريم قد عبق باسمها عندما يذكر مريم العذراء، وكأن لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، يذكر حبيبته سيدة نساء العالمين عندما يقول: (فاطمة الزهراء بضعة مني).

حتى اليوم لم تحصل مراجعة حقيقية لوضع المرأة.. نحن نرفض الموروث، لكن يغطس بعضنا إلى شحمة أذنه في العادات والتقاليد الذكورية، ويستمر بإقصاء المرأة، المشكلة أننا لسنا في أزمة خطاب إنما في أزمة أداء.. لسنا في أزمة ثقافة بمعنى العلم إنما في أزمة ثقافة بمعنى التربية.. نريد ثقافة مرئي ومحسوس.. نريد مصداقية.. نريد ممن يتحدث عن ثقافة المرأة أن يجسد ذلك في طريقة تعامله معها (الزوجة، والأم، والبنت، والأخت، والصديقة العفيفة في مجال التعليم، ومجال التربية، والمجالات الأخرى).. لسنا في أزمة خطاب إنما في أزمة تعامل.

لقد تغنّت الدول الغربية إلى الأمس القريب بالمرأة وحقوقها، قصة يوم المرأة تعود إلى يوم الـ 8 من مارس عام 1907، وقيل في عام 1908، عندما أضربت مجموعة من النساء في نيويورك عن الطعام، وخرجن وبأيديهن خبز وورد، وسُمّي يوم الخبز والورد يطالبين بتخفيض ساعات العمل... ماذا كانت النتيجة من 1907، وحتى عام 1977... قبلت الأمم المتحدة أن تسمّي هذا اليوم (يوم المرأة).

نريد واقعاً جديداً ينطلق من حيث انطلقت الآية القرآنية: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)).

هذه الآية الشريفة نسفت كل النظريات التي تقول: إن هنالك فرقاً تكوينياً نفسياً شعورياً ولا شعورياً بين المرأة والرجل: ((إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)). ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)).

لم تفرّق الآية القرآنية الكريمة إنما نسفت كل هذه، ولم تقف عند حدود هذا النص إنما قدّمت لنا نماذج من الشخصيات النسوية في طول التاريخ وعرضه ، نذهب إلى شعيب، وبنت شعيب بنت تحاور أباهما وهي صغيرة السن قالت: ((قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)).

يقدم لنا القرآن الكريم نموذج بنت تتحدّث مع أبيها النبي بكل ثقة، وبلا تردد ، ليس خلاف الأدب أن تتحدّث بنت مع أبيها، بل من الواجب أن تتحدّث عندما تكون البنت مُعطياً، وتملك موفوراً من الاختصاص، فطبيعي أن يكون الحديث والعلم ينساب من الموقع الأعلى من المختصّ إلى الموقع الأدنى إلى المتلقّي ، ليس قراراً أن تكون مُعطياً أو هي تكون مُتلقية هو واقع ، يقدم لنا القرآن الكريم جرأة البنت المؤدّبة المهذّبة، وهي تتحدّث مع أبيها المعصوم النبي:

((يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)).

وظلّ التاريخ يدور هذه الكلمة، وظلت محنتنا ومأساتنا أننا لا نعمل بما قالته هذه البنت منذ ذلك الوقت، والله لو عملنا:

((يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)).

لانهزمت المحاصصات، وانهزمت الطائفيات والعصبيات، وانهزمت كلّ الظواهر السلبية... لماذا نقرأ تاريخنا بخجل ... نحن الآن مع حقوق الإنسان التي تتنادي بها الأمم المتحدة، لكنّ الأمم المتحدة متى أقرّتها، ولماذا كلّ شيء في تاريخنا وعندنا عقدة الانسحاق والشعور بالدونية ... لماذا شعور الانبهار يستبدّ بنا في دول الشرق والغرب... ما الذي فعلته دول الغرب بالمرأة... متى سمحت لها أن تصوّت، التعديل التاسع عشر في أميركا في عام 1919، في زمن نلسن أول مرة يشرّع حق المرأة أن تصوّت، ومارستها في عام 1924، وفي فرنسا، وفي بريطانيا أول مرة في عام 1945، وفي سويسرا بلد الديمقراطية أول مرة عام 1977.

أما في بريطانيا فحدّث ولا حرج ، ارجعوا إلى قصة الحضارة لـ(ويل ديورانت) انظروا ما الذي يدّخر من قصص يندى لها الجبين خجلاً وحياءً، وكيف كانوا يتعاملون مع المرأة، والآن جاءنا جيل - للأسف الشديد - ينظر إلى كل شيء في فكرنا وتراثنا الزاخر بعقده خجل، ويريد أن ينقلنا من ثقافة الفعل السيئ إلى ثقافة رد الفعل الأسوأ.. ينقلنا من المرأة مُصادرة الكرامة والعز والحياة إلى المرأة التي تُختزل بجمال البدن... قدّم لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، نموذج خديجة سيدة نساء عصرها، كانت تاجرة، ومن الشخصيات البارزة في مكة... لماذا لا نقرأ تاريخنا... سيحكمكم التاريخ مسؤولية، ولن يرحم أحداً.. أنا أعرف أن هناك موجات جديدة تأتي باسم المرأة للحط من المجتمع، والحط من كرامتها، المرأة تريد حياة مفعمة بالحب، ومزدانة بالفكر، وموشحة بالكرامة والمساواة بينها وبين الرجل، ولا تريد أن تُختزل بساقها وشعرها وجمال عينيها إنما بجمال عقلها وإرادتها وفعلها.. هذه هي المرأة وهذا ما تريده.

الفكر الإسلاميّ دفع بالمرأة إلى مسارح الحياة، وصنع منها أمّاً في البيت، وهل هو شيء سهل أن تكون أمّاً في البيت ... ما هو البيت ... إذا كنا قصرنا في الفكر، وقصّنا البيت بقضيّة نخترلها بشكل سيء فهذا تقصيرنا. أليس البيت مصنعاً للرجال والنساء... أليس مصنع عباقرة... نقطة الصفر التي ينطلق منها الطفل هو البيت، وإلا لماذا قسم منهم ينتهون إلى زنازين السجون؛ لأنهم مجرمون، ويجرّون مجتمعات العالم إلى حروب، والبعض الآخر يتسنّم مواقع المجد، ويكون رحمة للناس... ما الفرق.. ما الذي حصل، إنه البيت.

سُمّيت الأم أمّاً؛ لأنها أصل.. .. دعونا نعيد النظر بتعريف البيت: البيت مؤسسة، البيت ليس للعاجزة التي تُغلق بوجهها كل المؤسسات؛ فتعود ربة بيت، كلا.. ربة البيت هي الأصل، لكن ليس هذا البيت الذي يعرفه الناس بأنه أربعة جدران، تُختزل المرأة فيه بأن تطبخ، وتخدم.. ليس الأمر كذلك المرأة في البيت تصنع كل شيء، تصنع أبنائها وبناتها، وتقدّم ثقافة، وتجسّد الثقافة، وفي الوقت نفسه تخرج من الداخل المنزلي قوية رافعة شعار (التربية) ، الذي يتقدم على شعار (الاختصاص)؛ لتتداح، وتمتد إلى المؤسسات؛ فتعمر المؤسسات بقلب وعقل وممارسة حقيقية..

لا يوجد أي تنافٍ.. لا ينبغي أن نقع بما وقعت فيه بعض الشعوب، لا نتكلم بالملق.. أتذكر مرّة سألني كوزومي رئيس وزراء اليابان، وهو من رؤساء الوزراء غير التقليديين عن وجه نظري بالمرأة، ويبدو أنه قرأ شيئاً ما: قلت له: وأنت ماذا تقول؟ قال: أنا أقول بالملق تخرج من البيت ، قلت له: استفد ممن سبقك في التجربة غرباتشوف اذهب، واقرأ البروسترويك.. ماذا يقول غرباتشوف، قال في عام 1917: نحن شرعنا في الثورة البلشفية إلى عام 1985 مرحلة البروسترويك وسقوط الاتحاد السوفيتي تحت عنوان (الأسرة)، ووجدنا أن خروج المرأة بالملق من البيت عرّض شبابنا وشاباتنا إلى أزمات نفسية، كلما كنا نحلّل بالمؤتمر - مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي - تأتي دراسات المختصين بأن السبب في ذلك يعود إلى هجر المرأة البيت، وإذا أردت أن تخرج المرأة من البيت يجب أن تأتي ببديل.. هذا البديل يتولى عملية التربية، ويعطي حناناً وفكراً وتربية وما شاكل ذلك.

من أين تأتي بذلك؟ وقلت له: أنا أعتقد أن مؤسسات الدولة منها ما يتقدّم فيها الرجل على المرأة؛ لأسباب تكوينية، ومنها ما تتقدّم فيه المرأة على الرجل؛ لأسباب تكوينية؛ لأن مؤهلاتها أكثر، ومنها مؤسسات تتساوى فيها المرأة والرجل.. هذا ليس ما نقرّره نحن.. هذه الملاعب الأولمبية، والمُشرّع الرياضي لا يدع إلى اليوم رياضة مشتركة بين المرأة والرجل.. لماذا؟ يقول لك توجد فروق في التكوين فإذا أضع فريقاً رياضياً بالركض أو بالدراجات أو بأي شيء ستخسر المرأة لا شيء إلا لسبب في التكوين، فالمُشرّع الوضعي يراعي الفروق التكوينية في الجسم، لكن لا يجوز ذلك للمُشرّع الإلهي الذي خلق الإنسان.. هذا تسطيح ثقافي.. أنا لا أعرف أن أُميّز عطر الرجل عن عطر المرأة، وكل شيء يميّزونه بين الرجل والمرأة، وما هو التمييز... التمييز مرة يقوم على أساس تفضيل، ومراعاة التكوين، والانسجام مع التكوين، ومراعاة الحقيقة التكوينية، ومرة يقوم التمييز بالخط.. إلى اليوم غصّت المجتمعات الغربية والشرقية وبعض مجتمعاتنا بهذه المفارقات، ولكن أحبّ أن أقول لكم: مُفترق الطريق هو هذا: أزمة المرأة في بلداننا أزمة تقاليد، وأزمة المرأة في الغرب والشرق هو أزمة فكر، المرأة فكراً مرفوضة في الدول الغربية حيث الفكر البطرياركي.

يقول تشرشل شيخ السياسة الغربية: مقولة المساواة بين الرجل والمرأة يجب أن أدرها... هؤلاء يعيشون عُقدة... انظر إلى القرآن الكريم: ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)).. ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)).

لا تستطيع أن تتصوّر رجلاً إلا وكان من أصل امرأة، نعم.. نستطيع أن نتصوّر رجلاً بلا أب وهو السيد المسيح (عليه وعلى نبينا وآله افضل الصلاة والسلام)، وهو معجزة، الأم تدخل في كل شيء؟ لماذا التكرار لهذه الثقافة؟

نحن اليوم نقطع أشواطاً، وهذه التشريعات التي تداولت بعضها، أنا لا أدري ما السرّ الذي يكون فيه العراق قمة في كثير من المواطن، وقمة في حضارته، وإنسانيته.. مسلة حمورابي 1792 إلى 1750 كان عمره 42 سنة عندما كتبها، إحدى روعات هذه المسلة، هو حقوق المرأة، وأما الديانات فشرّعت للمرأة، وأعطتها ما لا يقاس بالتشريعات الوضعية، لكن مشكلتنا أننا نقرأ الفكر من خلال الممارسة، ونحسب سوء تصرفات بعض المسلمين على الإسلام.. وهذا غير مسموح به... أنا على يقين أن النصرانية الحقيقية تنظر بكل إنسانية إلى المرأة، وأن اليهودية الحقيقية غير المحرّفة تنظر بكل إنسانية إلى المرأة، والإسلام ينظر بكل إنسانية إلى المرأة.

هذا البرلمان قدّم بالنسبة لنا شاهداً رائعاً على الفكر الذي اختمر، واعتمل في نفوس العراقيين؛ فأنجب ثلة من النساء 82 سيدة... أنا أعرف أنها لا تمثل الاقتحام الذاتي، وتمثل الإقحام الموضوعي، أقحمت بكوتا، لكن دعنا نسير معه لابس إلى أن يأتي الوقت ولعله ليس بعيداً أن تأتي المرأة بثقلها، مثلما كانت المرأة مضحية ومقدّمة ومساهمة في البيت والمؤسسة وفي العذابات في السجن والإعدام والتشريد.

لماذا تكون هناك النصف الثاني للرجل بل النصف الأكثر، لكنها في البرلمان والمؤسسات الأخرى تكون مهمّشة... المرأة في العراق تتقدّم، تتقدّم من حيث الكم، من حيث الاختصاصات النوعية، من حيث الدخول في المؤسسات، ومن حيث التصدي السياسي والإعلامي هذه بتصوّري نجاحات ونجاحات باهرة أحدثت في المنطقة اهتزازات، وتشهد بعض مجتمعات الدول المجاورة لنا تلقّيات طبيعية.. نحن لا نصدر ثقافة، لكننا لا نستطيع أن نمنع انعكاسات هذه الثقافة على هذه المجتمعات.

المرأة اليوم ترى نفسها في مجتمع ما ممنوعاً عليها السياقة، بينما المرأة تقف إلى جنب أخيها الرجل في إطار العفة والتوازن، وتتصرّف، وتجاوز في البرلمان، وتتحدّث من منصّات المنابر، وتلقي كلمة، وتقرأ قصيدة وغيرها.. المرأة تقدّر أن هذه الثقافة هي التي تتجاوز مع إنسانيتها.. حان الوقت لأن تعطي التشريعات البرلمانية أولوية لمعالجة الحيف والظلم الذي صُبَّ على المرأة.. حان الوقت لأن

نحوّل هذه المشاعر إلى أفكار، وممارسات تشقّ طريقها إلى التشريعات؛ لتزِيل عن كاهل المرأة هذا الثقل الكبير؛ ونعيد للمرأة الابتسامة المسروقة، ونطرد عن وجهها هذا الحزن الموجود حتى اليوم.

لا ينبغي أن نجلّ الانتصار للمرأة، كما جرت العادة في الدول الغربية، مشكلة المرأة أنها بعد طول نقاش أعطيت يوماً في التاريخ، ليس المشكلة أن نسمّي يوماً يوم المرأة إنما نريد اليوم الحياتي الذي يتجاوز 24 ساعة، ونريد اليوم الذي يتحرّك مع المرأة بكل فصول حياتها، وندرس معاناتها بنتاً، وأختاً، وزوجة، وأماً، وسياسية، ومعلمة، وطبيبة، وكل شيء.

العدل الاجتماعي هو اليوم الحقيقي، وليس اليوم الذي نلتقي به في السنة مرة واحدة.. اليوم الذي نلتقي به في الساعات يومياً، ونتابع حركة المرأة، وننصفها ليس من موقع التغزل على الطريقة المعروفة لبعض الشعراء، ولا نحرم الغزل، ولا نستنكره، لكن المرأة لا تُختزل فقط في أن نحرك فيها العاطفة.. يجب أن نعيد للمرأة مكانتها وكرامتها.

العراق اليوم يتصدّر التجربة في كثير من المجالات ، وواحد من هذه المجالات هو مجال المرأة؛ لذا أنا سعيد جداً حين أرى البرلمان العراقي مزداناً بمجموعة كبيرة من النساء خصوصاً عندما يكون النوع نوعاً عالياً، وليس فقط نوعاً، وإنما يكون النوع متنوعاً، أكثر من مجال، أكثر من موهبة في الأدب والفن والشعر والفلسفة والطب والهندسة وكل شيء، وقبل هذا وذاك لم تدخل البرلمان من موقع هجر البيت، وهجر الزوج، وهجر الأولاد، والله شرف للبرلمان أن يحتضن المرأة التي نجحت في بيتها، ونجحت في مجال اختصاصها؛ لتتجج... من يعجز عن بناء البيت هو أعجز عن أن يبني المجتمع، ويبني السلطة التشريعية، وغير ذلك.

تمنيتي لبناتنا من دون استثناء أن يواصلن العمل بدأب ومواصلة تماماً مثلما مارست بناتنا في الأمس القريب.. إذا تكلمنا في التاريخ المعاصر فالعلوية بنت الهدى أديبة وعالمة ومجاهدة وشهيدة، وسلوى البحراني مختصة وشهيدة، وهاشمية سدخان في البصرة شهيدة.. إنها البطولة.. يجرّعون ابنها السُمّ أمامها؛ حتى تعترف، وتدلهم على مكان زوجها، وهي تعلم، وما أنكرت أنها تعلم، وأثرت الموت دون أن تعترف، وإذا انتقلت من محافظة إلى أخرى، إذا انتقلت إلى الناصرية نجد السيدة جابرية وفطيم سرحان بطولة، فكر يصنع أبطالاً.. تلك النساء، وكذلك الضحايا التي صارت عندنا، والسيدة عقيلة الموسوي التي كانت من العناصر الناشطة مختصة وطنية تعمل معنا في مجلس الحكم، وقد طالتها يد الإرهاب؛ ليغتالوا باغتيالها إنسانيتها.. من يستهدف المرأة يستهدف الإنسان، ومن يفتقر إلى ثقافة فهم المرأة يفتقر إلى الثقافة الإنسانية..

أتمنى لكم كل الموفقية، وأن تكونوا نموذجاً صالحاً ليس فقط لبناتنا في العراق، بل
بناتنا في المنطقة، والعالم كله.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بمناسبة اليوم العالمي للمرأة في فندق الرشيد 2012/3/8

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:

((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)) [التحریم:11]

ما أروع أن تكون المرأة مثلاً أعلى لمجتمعاتنا، وما أروع أن يصف القرآن الكريم بقداسته صورة للسيدة آسية بنت مزاحم بأنها مثل للذين آمنوا، وكيف استطاعت أن تختزل زمن الصعود، وترتقي إلى قمة المجد، وتدوي بصوتها؛ حتى نرى نموذجاً رائعاً يستحق أن يتأسى به رجالنا ونساؤنا.. إنها آسية بنت مزاحم، المرأة التي عاشت قصر فرعون جدراناً خاوية، ورفضته بكل زخارفه، وكل ثرائه، وآثرت الحياة مع المستضعفين، وأبت إلا أن تناضل ضدّ ذلك الجبروت الفرعوني الذي يذكره لنا القرآن الكريم، ما أروع أن تتسنى هذه المرأة وهي سيدة نساء عصرها هذا الموقع السامق؛ حتى تكون نبضاً حياً ليس فقط في ذلك الوقت، بل إلى يومنا هذا، ونحن وإياكم إذا نعيش عيد المرأة، نتمنى أن يُعطى العيد مضموناً حقيقياً لا يقف عند حدود تسمية عيد المرأة، بل يعبر إلى إعادة المرأة إلى مكانتها التي أراد لها الله (تبارك وتعالى) أن تكون...

لعل كلمة عيد من العود، والرجوع إلى الأصل؛ لذلك تعودنا أن نستمتع كلمة العيد بعد مجاهدة طويلة، وبعد مسيرة شاقة ورياضة روحية، على مستوى الصوم فتتوشح بعيد رمضان أو على مستوى الحج، والمعاناة سواء نبدأ من الإحرام؛ لننتهي في طواف الوداع، أو في اليوم العاشر في منى؛ لنلتقي مفهوم العيد بعد رياضة روحية كاملة.

لعل الإنسان يعود إلى حيث خلقه الله (تبارك وتعالى)، ويكون قد عاد إلى فطرته، وكذلك عيد الغدير، وكل يوم لم نعص فيه الله (سبحانه وتعالى) هو عيد، كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام).. ما أروع أن تأخذ المرأة اليوم حقوقها المسلوبة، فهي في مساراتها التاريخية الطويلة المضطّعة بالألم، والدموع، والعرق، والدماء أحياناً كل المجتمعات ساهمت في ذبحها، وكل الحقب التاريخية ساهمت في عزلها وتهميشها، ولم يكن هذا الاسم اسم عيد للمرأة إلا ولادة متأخرة في بداية القرن العشرين 1907- 1908، حيث أضربت مجموعة من النساء في نيويورك عن العمل، وطالبت بحقوقها، وبعد ذلك كان التعبير عن الركاكات والعذابات التي يعاني منها الملونون السود في أميركا حينئذ، ولم تقرّ الأمم المتحدة هذا العيد إلا مؤخراً.

كيف نحول العيد المناسبة إلى عيد الحياة؟... كيف يكون انتصارنا للمرأة، فنحول هذا الانتصار من انتصار عاطفي تشهده المهرجانات، ويتغنى بها الشعراء، ويتحدث بها المتحدثون إلى أن نعمل مجالات المجتمع كافة بالبعد الإنساني المتحضر لطبيعة المرأة، التي تكون بنتاً أو زوجة أو أختاً أو أمّاً في البيت، أو أن تكون شريكة ومساهمة في بناء المؤسسات...

كيف نعيد للمرأة موقعها الذي حباها الله (تبارك وتعالى)، به بعد أن عُزلت عن المجتمع، وبعد أن عانت العذابات، وبعد أن ساهمت في اغتيالها المعنوي كثير من الثقافات في الغرب، وبعض العادات والتقاليد العشائرية في مجتمعنا...

ها هي اليوم تصحو، وبدأت تصدح بصوتها من جديد.. المرأة اليوم هي النصف الثاني في المجتمع، بل النصف الأول في المجتمع، الذي له دالته على الرجل منذ السنوات الأولى من حياته في السنوات السبع الأولى.. هذا الدور الذي كان مجمّداً عاد اليوم ينبض بالحياة من جديد، وإذا نظرنا إلى البنية الفوقية المختلفة من العادات والتقاليد والمؤسسات والكثير من الظواهر الاجتماعية، وانتقلنا من البنية الفوقية إلى التحتية، سنجد أن المرأة سرّ كل ظاهرة ايجابية، وهي سرّ كل حالة اجتماعية منشودة.

كيف تكون المرأة سرّ الحياة في المجتمع ... تكون سرّ الحياة في المجتمع عندما تنهض بمهمتها التي حباها الله (تبارك وتعالى) بها، وعندما نستعيد الثقافة الإنسانية للمرأة بدلاً من الثقافة البطريركية، أو ثقافة الذكورية التي أقصت المرأة، واستكثرت عليها إنسانيتها.

المرأة اليوم بدأت ترتقي من جديد على سلم الدولة والمجتمع من خلال كونها إنسانة، وإن الله (تبارك وتعالى)، منحها كما منح الآخرين.. المرأة تبرز اليوم في المؤسسات موظفة وعاملة، ليس بديلاً عن حركتها في مؤسسة البيت، لكنها تضطلع بمهامها المختلفة بحسب اختصاصاتها، وفي العراق بالذات في مجال الإعلام والسياسة، والتعليم والتربية، والطب والخدمات العامة، والاقتصاد، والفن، والمجالات كافة من دون استثناء.. الظواهر السلبية التي ترونها اليوم تحكم قبضتها على المجتمع، وتقض مضجعه تستطيع المرأة أن تساهم في حل الكثير منها.. هناك فرق كبير بين أمّ في البيت تربّي أبناءها على النعرة الطائفية والعصبية العنصرية أو القومية، وبين أمّ تكون مدرسة لتعزيز الوحدة الوطنية، ومدّ الجسور، وإشاعة ثقافة التعايش المذهبي.. فرق كبير بين المرأة التي تتصدى للسياسة من موقع الوعي والتضحية والالتزام والانسجام بين الداخل المنزلي والخارج المنزلي، وبين التي إذا دخلت إلى مجال ما هجرت مكاناً آخر.

حان الوقت لأن تنطلق المرأة انطلاقة متوازنة في كل المجالات، ولعلّ بعض المجالات تكون حكرًا على المرأة، ولا يستطيع الرجل أن يقتحمها، فعندما ننظر إلى

البيت وإلى دور المرأة في التربية، والنشء الجديد خصوصاً عندما قسّمت الأمم المتحدة تقسيمها الثلاثي المعروف (الطفولة المبكرة، والمتوسطة، والمتأخرة) أو (السبعة الأولى، والثانية، والثالثة)، كان الإسلام قد قسّم هذا التقسيم منذ أكثر من 1400 سنة (السبعة الأولى، والسبعة الثانية، والسبعة الثالثة).

الأولاد ألصق بأُمّهم مما هم بأبائهم، وصدقوا أن الكثير من عظماء العالم يذكرون أن من جملة ما تغدّوا عليه من عناصر القوة في القيم والفكر كان السرّ فيه امرأة، ولعلّ مقولة: (وراء كل عظيم امرأة) صحيحة إلى حدّ كبير...

حان الوقت لأن تستعيد المرأة دورها ومكانتها، ولا يكون ذلك على حساب البيت ليس البيت بمعنى الحلقة الضعيفة في المسلسل التربوي والمسلسل الإداري، إنما البيت؛ لأنه مصنع شخصيات من الرجال والنساء، والقويّ في المجتمع من دون شكّ استمدّ الكثير من عناصر شخصيته من خلال أمّه قبل أن يأخذ من أبيه؛ لأن مرحلة القيم تسبق مرحلة الأفكار، وأن الأولاد في السنوات السبع الأولى ألصق بأُمّاتهم من آبائهم، لا يوجد حاجز أمام المرأة من ناحية الفكر، ولا تعيش عُقدة التقاليد.

إياكم أن تخلطوا بين التقاليد والثقافة، فالذي وقف أمامكم ليس الفكر، إنما الذي وقف أمامكم هو التقاليد، وهذه التقاليد ساهمت فيها عناصر فُرِضت على مجتمعنا.. حين نواجه هذه العناصر ستزول، وتتبدّد هذه الخرافات والخزعات والتقاليد السيئة التي لا تمتّ إلى قيمنا وفكرنا وديننا بصلة...

القرآن الكريم يقدّم لنا نماذج رائعة في مجال التصديّ في السياسة، وفي الجهاد، وفي الاعتقاد، وفي الحوارات، وفي كل شيء تجد المرأة نموذجاً في القرآن الكريم، والقرآن له الحاكمية، وكذا السيرة العطرة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل البيت، وقد قدّموا أروع النماذج؛ ليجسّدوا آيات القرآن الكريم في سيرة النساء، فلا يشتهيه أحد بأن المرأة يقف أمامها حاجز الثقافة، ويقف أمامها حاجز التقاليد، نعم.. في الغرب حاجز الثقافة، أما هنا فهذه القيود لا تمتّ إلى ديننا وإلى ثقافتنا بصلة.. قدّم لنا القرآن الكريم نماذج زعيمة قائدة سياسية، محاورّة، حسيّفة، ناقلة حديث، متأنية غير متهورّة، قدّم لنا بلقيس ملكة سبأ:

((قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَاتُّونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34)).

الربيع العربي الآن، والرؤساء الذين يترنحون جعلوا من مستشاريهم يسبحون لهم، فأدوا بهم إلى ما أدوا بهم، فيما هذه المرأة قائدة وملكة سبأ والهيئة الاستشارية تقول لها:

((قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)).

ما عصف برأسها عواصف الذات والتعصب والغرور، كما يشهدون، وقالت:
((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا)).

انظر إلى الحكمة:
((وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً)).

القرآن الكريم ينقل لنا صورة المرأة السياسية القائدة كملكة سبأ، وتنقل لنا سور كثيرة من القرآن الكريم دور المرأة في هذا المشهد وفي ذلك المشهد وكلها تريد أن تفجر في المرأة طاقاتها الخلاقة؛ حتى تساهم في بناء المجتمع.. في الأسرة، وفي السياسة، وفي الاقتصاد، وفي كل مجال.

كانت سليمة الأسبعية قد اعتنقت الإسلام، ولحقها زوجها، وظفر بها، وكانت قد وصلت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأراد أن يسترجعها بحسب اتفاقية صلح الحديبية، فقالت له: يا رسول الله أنا امرأة ضعيفة، إذا أمسك بي سوف يقضي عليّ. فتأمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قليلاً، فنزل الوحي بالآية القرآنية الكريمة:
((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ)).

فنقض صلح الحديبية بسبب امرأة صدقت بجهادها وبايمانها، وهناك الكثير من المشاهد في التاريخ.. نحن اليوم نعيش حالة الشلل الاجتماعي، والمرأة معطلة، وثقافتنا لا تقول بذلك، بينما في الغرب وحتى الشرق، وأقصى الشرق يقولون بأن المرأة أدون من الرجل، أما في ثقافتنا فلا يوجد ذلك.. لا يشتبه أي أحد من النساء بأنها أمام فكر مُضادٍ إنما أمام تقاليد مُضادة؛ لذلك من خلال تحريك الثقافة، وتحريك القيم والمبادئ.. لا بد أن تستعيد المرأة مكانتها، وتأخذ دورها، وهاهي اليوم في العراق تمارس دوراً رائعاً إلى جانب أخواتها في بقية بلدان العالم، مثلما بدأت مسيرتها راوية ومفكرة ومختصة وأديبة وشاعرة ومثقفة وتثقف الأخريات.. يجب أن تواصل مسيرتها السياسية في كل مرفق من المرافق، ولا بد أن تبدأ من تحرير نفسها من داخلها، وأن لا تستسلم لهذه العقدة.

إن الله (تبارك وتعالى)، حبا المرأة بمختلف أنواع النعم، وأمامها مجالات أمامها المجال الاجتماعي، المجال السياسي، والاقتصادي، والفكري. كل المجالات مفتوحة أمام المرأة، ولا بد أن تنبعث لملء هذه الآفاق، وتسجل مواقف مشرّفة، وستجد تجاوباً من كل أصحاب الفكر والثقافة - للأسف الشديد - لا يزال عالماً المعاصر عالماً ذكورياً بطرياقياً يُقصي المرأة، ولا يقبلها.

المرأة في العراق قطعت شوطاً طويلاً، وبقيت أشواط لا بد أن تقطعها؛ حتى ترتقي.. أوجه خطابي إلى كل أب، وكل زوج، وكل ابن، وكل أخ، وكل مسؤول، وكل مؤسسة، وكل عضو برلمان، وكل عضو مجلس محافظة: يجب أن يعقلن نظرتهم إلى المرأة، وسيجد أننا لازلنا في بعض الأحيان نعيش الشلل الاجتماعي، ولا تزال الطاقات معطلة، ولا تزال المرأة تتحمل العبء الأكبر والمشقة الكبرى في الكثير من مرافق المجتمع، وتتحمّل المسؤولية، لكنها لا تشقّ طريقها إلى مواقع المسؤولية المطلوبة.

تستطيع المرأة اليوم أن تساهم في تبديد الكثير من مظاهر الفساد التي تفتشت في مؤسسات الدولة.. تستطيع المرأة أن تعيد الثقة إلى الرجل إذا كان أباً، أو زوجاً، أو أخاً، أو أي أحد.. المرأة هي التي تتولى عملية إعادة الثقة، والثقافة الصحيحة في البنية التحتية.. أنا لا أشك أن الكثير من ظواهر الفساد التي عصفت في مجتمعنا تستطيع المرأة - إن لم تكن السبب في أصل المشكلة - من دون شك أن تكون سبباً في الحل..

هناك فرق كبير بين أمّ أو زوجة أو أخت، وهي تغذي ابنها زوجها أو أخاها بثقافة البناء والتضحية، وبين أن تغذيه بثقافة التعصّب، برزت بعض النساء في المجتمعات الغربية كـ (هيلين كلر)، استثناءً على الرغم من المعوّقات التي كانت في جسمها، واستطاعت أن تكون خطيبة بارعة، وحازت على أربع شهادات دكتوراه بين عام 1880 ولادتها إلى 1966، 86 سنة كانت طرشاء وعمياء، لكن هنالك إرادة قوية، والسيدة (ستوي)، التي كتبت كتاباتها المعروفة في القرن التاسع عشر قبل الحرب الأهلية في أميركا وهذه الرواية قصة (كوخ العم توم)، التي ساوت بين الشمال والجنوب الأميركيين، حتى هي ما كانت تتصوّر أنها ستساهم في إخماد الحرب الأهلية، أما في تاريخنا فحدّث ولا حرج نساء طرّزن التاريخ، وبأزكى المواقف في مجال الفكر، والتأليف، والشعر، والتضحية، والسجن، والشهادة.

لا بد أن نخترنهن في ذاكرتنا، ونحوّل هذا التذكّر إلى عملية تذكير مستمرة، ونطرّز أحاديثنا، وكل ما لدينا من فرص، ونذكر تلك النسوة بكل احترام وتقدير.. اليوم يجب أن نقدّم مشروعاً كاملاً بالإصلاح، والمرأة تقف على رأس المشروع.. من دون شك أن المرأة في البيت لها دور مضاعف، وأن المرأة في المدرسة لها دور مضاعف، وهكذا عندما تتواجد في مجال التربية.

المُشكّل الحقيقي في العمق هو مُشكّل تربوي، والمرأة في مجال التربية تستطيع أن تمارس دوراً أهمّ من دور الرجل، ولكن ذلك لا يعني، ولا يُخلّ بدور الرجل، كما توجد بعض المؤسسات يتقدّم فيها الرجل على المرأة، لكنّ المؤسسات التربوية مؤسسات صناعة الإنسان هي التي تساهم فيها الأمّ..

لا ينبغي أن تتخلّى عن دورها.. لا ينبغي أن تقف مكتوفة الأيدي حين ترصد الظواهر الاجتماعية والفساد.. عليها أن تسأل نفسها: إن الطفل عندما يبدأ، وينتهي إلى السجن مجرماً أو إلى قمة المجد مُعطياً.. هل هنالك امرأة ساهمت في صناعته ... حين يُولد الولد حيادياً لا مجرماً ولا عبقرياً يمكن أن يتجه إلى هذا الاتجاه، أو ذاك؛ لذا يجب أن نُعيد مفهوم البيت، وحين تقول الآية القرآنية الكريمة: ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)) [الروم: 21].

لَمْ يعاني المجتمع اليوم من ظواهر الطلاق، وهذه الظواهر المأساوية حيث نجد عدداً مروعاً منهم في كل محافظة من المحافظات... لا تستطيع المرأة أن تمتدّ بثقافتها لإصلاح هذا الفساد الذي عمّ كل مناحي الحياة حتى في العلم وهو فساد جديد، إذ تجد أحداً يسمّى لنفسه (ماجستير أو دكتور) وهو ليس عيباً، لكنّ العيب أن تسمّي نفسك دكتور، وأنت لست دكتوراً، ليس عيباً أن لا تكون دكتوراً فـ (آينشتاين) لم يُنه دراسته الإعدادية، و(وليم شكسبير)، الذي تتغنى الناس بنتاجه الأدبي لم يُنه الابتدائية، وكتب (ماكبث، وروميو وجولييت)، وهي روايات عالمية.. ليس عيباً أن لا تكون عندك شهادة علمية، لكن العيب أن لا تُؤتمن على لقبك العلمي.. من لا يُؤتمن على لقبه العلمي، ويسرق لقباً علمياً ليس له لا يمكن أن يُؤتمن على شعب وكرامة شعب.

الأم تستطيع أن تزرع القيم، وليس المهم أن تتحدّر من هذه الطبقة الاجتماعية، أو تلك إنما المهم أن تتقدّم بمكوناتك الداخلية (بعقل متفتح، وبقلب متفتح)؛ حتى تساهم في بناء المجتمع.. كل عمل هو شريف وكل اختصاص هو شريف والإنسان هو الذي يشرف المهنة، وهو الذي يعطيها بعدها الإنساني، والأم تستطيع أن تتحوّل بمنظومة التربية.

إنما سُميت الأمّ أمّاً؛ لأنها أصل تستطيع أن تمارس دورها، ويجب أن ننظر إلى هذه المناسبات، ونضفي عليها من حضارتنا وتاريخنا، ونفتح على تجارب العالم، فليس لدينا عُقدة من أن نستفيد من كل تجارب العالم، فإذا قيل لنا: توجد تجربة ناجحة في أي منطقة في العالم حتى ولو كانت في جُزر (الماو ماو)، أو إن هناك كتاباً نقرأه، ونستفيد منه، ونتعلم منهم.. لا توجد عندنا عُقدة، والحديث الشريف يقول: (الحكمة ضالة المؤمن فخذ حذرك حتى من أهل النفاق).

نأخذها من أي أحد، لا توجد عندنا عُقدة، لكن لا نقرأ تاريخنا بخجل.. لا نقرأ فكرنا بخجل.. نستفيد من أخطاء الآخرين، ونحرّك مكامن القوة في ثقافتنا؛ لإعادة بناء المجتمع من جديد.. هذه أمانة..

ذكرتها أكثر من مرة، وأكرّرها في المرات القادمة - إن أبقاني الله حياً - لابد للمرأة أن تتحرّر من عُقدة الشعور بأنها أدون من الرجل من داخلها، وما لم تتحرّر من

داخلها من هذه العُقدة لا تنفعها ثقافة، ولا يستطيع أحد أن يأخذ بيدها، ويرتقي بها على السُّلم... من أين جاءت العلوية بنت الهدى آمنة الصدر ... أليست من نفس المجتمع الذي أفرزكم... من أين جاءت (سلوى البحراني).. من أين جاءت الشهيدات.. ألسن من نفس المجتمع.

تستطيع المرأة أن تعانق الفكر والقيم، وتجسّد ذلك، وتضحّي، وتثبت على أرض الواقع أنها قوية، وتضحّي، وصالحة لأن تبني المجتمع، وليس فقط تبني أولادها، والأسرة مفهوم يجب أن نعيد النظر فيه فهو يعني في الغرب Family من familys، كما يقول صاحب دائرة المعارف البستاني، أخذت من Familys بالإغريقي بمعنى: (حق الرجل بقتل أفراد أسرته)، أما الأسرة في ثقافتنا فتختلف.

ما هي الأسرة... هل هم الرهط الأدنون، أم الدرع الحصين... فرق هائل في اشتقاقها اللغوي، الأسرة تعني الرهط الأدنين، تعني الأقربين، لا تعني من عليهم حق التحكم بهم، وقتلهم.. هذا منشأ ثقافي.. ثقافتنا تختلف عن ثقافتهم.. نحن لا ننغلق على ثقافة الآخرين.. نحیی مناسبة عيد المرأة، لكننا نريد أن نحول يوم المرأة إلى دورة حياتية، وأن لا تتأقلم بإقليم معيّن، ولا تتعنصر بعنصرية معينة، إنما تتسع، وتبدّد كل الآلام والأحزان والأوجاع التي ألمّت بحياة المرأة.

أتطلع إلى حياة جديدة تكون من صناعتكم بثقافتكم، وبمصادقيتكم بالحكمة التي ينبغي أن تتحلّوا بها، حتى توفّقوا بين حياتكم الخاصة وحياتكم العامة؛ وحتى لا يكون إعمار المؤسسة على حساب البيت أو إعمار البيت على حساب المؤسسة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.